ونحن نعرف أن أم يحيى كانت قد بلغت سن اليأس وأن أباه زكريا (عليهما السلام) قد بلغ من الكبر عتيا فلا ينجب مثلهما أبدا. وكذلك أمر عيسى بن مريم.. ولادة بغير أب وبنفخة من روح الله..

وقيل أيضا: أن أهل الكهف من قوم عيسى. وأن قصتهم كانت في الفترة – أى بين عيسى ومحمد عليهما السلام – فناسب توالي قصتهم وقصة نبئهم[1]

ومن وضع سورة الكهف بين الإسراء ومريم ننتقل إلى وضعها العام في كتاب الله..

هى السورة الثامنة عشرة كما سبق القول، وسور القرآن مائة وأربع عشرة ولكن الكهف تقع في منتصف القرآن.. وعدد آياتها عند قراء الكوفة مائة وعشر آيات. وهو ما عليه المصحف الذى نقرأ. قد يختلف العدد عن قراء الشام والبصرة بناء على اختلافهم في تقسيم بعض الآيات إلى آيتين..

فنهاية الجزء الخامس عشر وبدء السادس عشر يقعان في وسط سورة الكهف وذلك عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

وكذلك بدء النصف الثانى من مجموع حروف القرآن يقع في هذه السورة وهو التاء في قولة تعالى ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ .. وبهذا كانت هذه السورة حروفًا وأجزاء في منتصف القرآن الكريم.

هى مفتتحة بالحمد حتى يكون افتتاح النصف الثانى من القرآن بـ "الحمد لله" كما كان افتتاح النصف الأول بـ" الحمد الله " في فاتحة الكتاب. وكما كان أول الربع الرابع منه تقريبا بـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

ونستطيع أن نرجع إلى تفصيل في هذا كنموذج إلى تفسيرين أحدهما قديم والآخر حديث:

- **أما القديم** فتفسير الإمام الفخر الرازى "مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير".
- **وأما الحديث** فتفسير التحرير والتنوير للإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عند دراسة سورة الكهف في كلا التفسيرين.

(١) السيوطى في أسرار ترتيب القرآن ص حتى ١١٣ الى ص ١١٦.

وبهذا نكون قد عرضنا للترتيب الموضعى لسورة الكهف بين الإسراء ومريم، ثم للترتيب الشامل لها في المصحف حيث هى في منتصف القرآن وذكرنا في الحديث السابق وضعها في السياق الزمنى في أحداث مكة، في فترة التحدى بعد الإعلان بالدعوة في مطلع العام الرابع للبعثة، وقبل الحصار الاقتصادى في مطلع العام الثامن.. فهذه الفترة بين الرابع والسابع كانت أشد فترات الأذى البدنى والصراع الفكرى والتضييق والهجرة إلى الحبشة و التآمر، والاتصال باليهود وغير اليهود بحثًا عن أساليب يهاجمون بها الرسالة والرسول عليه الصلاة والسلام، ويحاولون بها فتنته وفتنة أصحابه وصدهم عن النور الذى أكرمهم الله به.

ومن هذا الاطار الواسع زمانًا ومكانًا ننتقل إلى عرض وتحليل داخلى للسورة،ولعل من الأفضل أن نقدم لهذا بإبراز الترابط بين أحداث الدعوة الإسلامية،ما يلقاه المسلمون في مكة وما ينتظرهم وهم على طريق الحق، وما جاء في هذه السورة ردا على تحدى قريش وأشياعهم من أهل الكتاب وتثبيتًا للمؤمنين، وتمهيدًا وإعدادًا لما يستقبلون في يومهم وغدهم من أحداث ومحن،عدتهم فيها الإيمان والإخاء والعمل المنظم.

obeikandl.com

٣ ـ بين سورة الكهف والسيرة النبوية

أربع قصص أساسية نلقاها في سورة الكهف: أصحاب الكهف والرقيم قصة الصاحبين أو صاحب الجنتين. موسى والعبد الصالح. قصة ذى القرنين.

ولكل من هذه القصص الأربعة تشابه مع أحداث السيرة النبوية، ما سبق منها نزول السورة، وما حدث بعدها في مكة والمدينة.

وإذا تتبعنا خط الإيمان في القصص الأربع وجدناه في قصة الكهف يأوى إلى الجبل، مع فتية آمنوا بربهم. خرجوا به، أو خرج بهم، من مدينة ظاهرها اتساع في العمران، وباطنها كفر بالايمان. كان الكهف عندهم ـ مع ضيقه ـ أرحب وأوسع ولنسمع قول الله تعالى:

﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦ ﴾. (الكهف: ١٦).

وتأمل هنا قوله تعالى: "ينشر لكم ربكم من رحمته" أين؟. في الكهف الضيق. فمع ضيق المكان، سعة الإيمان. ثم انتصار الإيمان وندع أصحاب الكهف إلى حين، لننتقل إلى قصة الصاحبين: ﴿ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ ﴾. (الكهف: ٣٢).

فى هذه القصة كان مع الغنى كفران، ومع الفقر إيمان، أحد الرجلين ممتلىء اليد بالمال فارغ القلب من الإيمان، والثانى فقير ولكنه معتز بإيمانه. ولم يستطع هذا الغنى مع اقترانه بالجحود والكفران أن يهز إيمانه بالله وثقته فيما عنده.. وهو واثق بوعود الله له سبحانه خزائن السماوات والأرض. وبهذا ينطلق لسانه: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴾ (الكهف:٤١). وينتصر الإيمان.

وندع القصة إلى موسى والعبد الصالح، لقد كان الإيمان معهما معًا، ولكن القصة درس في التواضع أمام علم الله مهما يكن مصدره، والتجمل بالصبر في محاريب العلم. وفوق كل ذى علم عليم.

كانت يد القدر تحرك الموقف. والموقف كله إيمان في إيمان والعنصر الذى تضيفه القصة إلى موسى، هو مزيد من الصبر والأناة في تناول أمر الدعوة،وعدم التسرع في الحكم. والالتزام بالكلمة يقولها، وبالوعد يرتبط به.

كانت القصة توثيقًا للصلة بين الإيمان والصبر والتواضع، هذا ما قدمه العبد الصالح امتثالا لأمر ربه، إلى نبى من أولى العزم هو موسى عليه السلام عاد العبد الصالح إلى الغيب الذى برز منه، ليغيب فيه.. وبقى موسى معنا، بعد هذا الإسراء العلمى،الذى رأى فيه من آيات ربه.

وندع هذه القصة إلى ذى القرنين. والموقف فيهما يختلف عما رأينا في قصة الكهف.. هناك في ـ الكهف ـ كان الإيمان مع القلة: قلة العدد السلاح والمال والرهط.. وهنا الإيمان مع قائد جمع العدة والعدد والقدرة على الإنجاز. فإذا كنا نعتبر الصور في الكهف بدءا وانطلاقا فهى في قصة ذى القرنين هدف وأمل منشود يتمثل في قول الله تعالى على لسان هذا القائد ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ (الكهف ٩٥).

وبماذا وصفه الله؟ ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الكهف: ٨٤، ٨٥).

إن الدعوة إلى الله تستهدف التمكين، والتمكين وسيلة إلى إعلاء كلمة الله تعالى: - ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾. (النور: ٥٥).

فى قصة ذى القرنين نشهد كيف عبر الإيمان عن وجوده بالعمل المشترك والتعاون على بناء السد، وكيف استطاع أن يحول بين الإفساد وانتشاره في الأرض.. فالتعبير عن الإيمان في القصة محسوس. يبرز وسط نيران الصهر، ومعاول الحفر، وجهد السواعد، وحكمة القيادة..

وفى مقابل هذا: نستطيع أن نتتبع خط الكفر فترة في أول أمره متقدمًا ضاريًا.. وفى آخره متراجعًا مخذولاً:

فى قصة الكهف كان الكفر إلى جوار السلطان المسيطر على المدينة ومضت السنوات والقرون، وتبدل الزمان والسكان، وطوى التاريخ صحائف الكفر،وهؤلا الفتية في أمن الإيمان، وقد ضرب الله على آذانهم في الكهف سنين عددًا ولما بعثهم كان البعث إجابة على المعركة المستمرة بين الحق والباطل: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ (الكهف:١٢)

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ (الكهف: ٢١).

وكذلك في قصة الصاحبين ـ أو الجنتين ـ هزم الله الكفر أمام الإيمان،وعلى مشهد من المؤمن والباغى ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (الكهف:٤٢، ٤٣).

وننتقل إلى قصة ذى القرنين فنرى فيها هزيمة الطغيان بأسلوب آخر، هو عجزه عن الوصول إلى هدفه بعد إقامة السد وفى السورة – إلى جوار- القصص – عرض موجز لبدء الخلق ومشاهد الآخرة والحساب والعقاب.. وفيها حمد الله وتوحيده وإخلاص العبادة له..

وإذا ضممنا هذه الخيوط كانت نسيجًا وحياة متكاملة: بدءًا وجهادًا ومعادًا،وإيمانًا يحمل في طياته كل بذور القوة،وإن بدا ضعيفا أحيانا،آويا إلى

كهف أحيانًا، ولكنه المنتصر أخيرًا، لأنه كلمة الله ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ (المجادلة: ٢١).

قصة جديدة....

وإذا رجعنا إلى السيرة النبوية وجدناها تمس سورة الكهف مسًا مباشرًا في أحداث بعينها، وتمسها مسًا مجملاً في إطارها العام:

الكهف: في حياة الرسول أكثر من موطن جبلى.

ولنذكر المعنى اللغوى أولا:

إن نقب الجبل إذا كان ضيقًا فهو الغار، وإذا كان متسعًا فهو الكهف. ونذكر غار حراء في جبل النور لأول الإسلام وبدء نزول القرآن فيه ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ ؛ وغار ثور على طريق الهجرة من مكة إلى المدينة ؛ وشعب بنى هاشم وقد ألجأ الكفار رسول الله وأصحابه إليه ثلاث سنوات عجاف زادهم الإيمان، والقليل القليل الذى يصل إليهم خفية من طعام.

وفى قصة الجنتين، نذكر كيف كانت تستطيل قريش على الرسول وأصحابه وبما عندها من مال.. بل ويعجبون كيف يختار الله رجلاً فقيرًا ليكون رسوله إلى خلقه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الزخرف: ٣١، ٣٢).

وكثيرة آيات القرآن التى تبين حجج الكفار، وربطهم بين الرسالة والغنى المادى، ورد القرآن على هذه الشبهة.

جانب الصبر والتحمل كان الغالب في قصة الكهف والجنتين. ولكن الله تعالى ذكر قصة ذى القربين. وأكثر فيها جانب الأمل، وتعانق الإيمان والقوة، وما يستطيعان أن يقوما به حفظا للحياة والأحياء، وأمانا وتأمينا.. ولم ير المصطفى عليه الصلاة والسلام ذلك إلا في المدينة: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ

مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الانفال: ٢٦).

أما قصة موسى والعبد الصالح، فغير بعيدة في بعض مشاهدها عن مشاهد الإسراء والمعراج.. صور العلم الإلهى الذى يسأل فيه المصطفى الروح الأمين: ما هذا يا جبريل، ثم يأتى التكريم الأكبر ﴿ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ (النجم: ١٨).

وإذا كانت قصة موسى والعبد الصالح أرضية محدودة المدى والمشاهد، قلقه كان الإسراء أرضيًا، والمعراج سماويًا طوى الزمان والمكان، وأبرز مشاهد لم يأت تشريعها إلا بعد أن استقر الإسلام في المدينة: كحدود شرب الخمر والزنا، وتحريم الربا.. فكان الإسراء ـ وهو بعد سورة الكهف حدوثًا ـ صورة مستقبلية للمجتمع الجديد.

٤ـ فاتحة سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴿٣﴾ ﴾ صدق الله العظيم.

* افتتاح السورة بالحمد لله.. والحمد في القرآن بدء ومسار وغاية..

- بدء نقرؤه في أول سورة الفاتحة: الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم

- ومسار: فهذا الكتاب المبين هو دليلك المستقيم في الحياة،هو الصراط والمنهج. ولم يجعل له عوجا.

- وغاية: وذلك حين تسير على هداه يهديك إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين تردد فيها مع المؤمنين والملائكة ما ذكره الله في هذا المشهد:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥ ﴾ (الزمر: ٧٣-٧٥)

فالأمر: أوله حمد ومساره حمد وغايته حمد.

ولنذكر أن هذه السورة نزلت في أشد الأوقات عسرة في العهد المكى.. والمسلمون قد مستهم البأساء والضراء وزلزلوا.. والمصطفى لا يملك، وهو يمر على المستضعفين، إلا أن يدعوهم إلى الصبر قائلا: "لا أملك لكم من الله شيئا. إن موعدكم الجنة".

ولكن أذى الأجساد يزول وسيعود الظالم والمظلوم إلى الله،﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨ ﴾ (إبراهيم: ٤٨) هناك يعلو الإيمان ويرتفع، ويسير المسلمون في نوره إلى جنة الرحمن.. ومن قبل هذا وفى -الدنيا- بعد الصبر والألم يشهد المؤمنون انتصار الحق ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ ﴾ (غافر:٥١).

من أجل هذا ظلت الألسنة المؤمنة رطبة بحمد الله، مستهينة بالعذاب والبطش، متطلعة إلى النصر الحق الذى وعد الله به رسوله والمؤمنين في الكتاب المبين.

وهذه الآية الأولى رباعية البناء:

- أولاً: الخالق: وله الحمد
- ثانيًا: الرسول: وهو عبد الله الذى أنزل عليه الكتاب.
- ثالثًا: القرآن: وهو المنهج والنور
- رابعًا: المؤمنون: الذين يتبعون الرسول المنهج.. فالدين ليس أمرًا فرديًا بين الله تبارك وتعالى وبين رسوله، ولكنه طريق يسير عليه الرسول والمؤمنون

معه القرآن قيم على أمر الحياة والأحياء.. قيم على الكتب السابقة،يعيد البشرية، إلى الطريق السوى بعد أن انحرفت بها الأهواء والشهوات والمطامع والجمع بين قول الله تعالى ﴿ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ ﴾ وقوله: ((قيما)) كالجمع بين ﴿ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾[1] في أوئل سورة البقرة. وذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾. (البقرة: ٢).

وننتقل مع الآية خطوة أخرى في قوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٣ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴾ ويأتى الإنذار في هذه الآيات سابقًا بشارة المؤمنين، ولاحقًا حمد الله تعالى.. وكأن السياق القرآنى يبدأ بالحمد ،وينذر المكذبين، ويبشر المؤمنين.

ولكن نقف هنا عند الإنذار.. فهو عام: لينذر بأسا شديدا من لدنه. لمن؟ من هم المعنيون بالإنذار؟ ما صفاتهم؟ يأتى الإنذار بعد وصف القرآن الكريم بأن الله ﴿ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ ﴾ فالإنذار لمن انحرف عن المسار القرآنى ولم يرض به قيما وميزانا للحياة والأحياء، كل انحراف عن المسار أومحاولة للصبر عنه.. يدخل في دائرة النذير.

والقرآن لم يهادن كفار قريش في أمر التوحيد.. ولامن كانوا يتعاونون معهم من أحبار اليهود أو غيرهم.. وإنما أعلن النذير)) والمسلمون يخوضون معركة غير متكافئة بين عقيدة لا تملك إلا الإيمان، وبعض المال الذى أتت عليه مسئوليات تحرير المستضعفين وكفالتهم، ودين باطل متجبر يملك في مكة السلطان والسلاح والمال.

وهذا البأس الشديد ،من لدن الله تعالى: هو الذى أنزل على عبده الكتاب، وهو الذى جمع عليه العقول والقلوب المؤمنة.. وهو الذى يمكن لهؤلاء المستضعفين في الأرض،ويجعل لهم بأسا وسلطانا يؤمنون أن وديعة الله عندهم لا يرفعون السيف إلا بقانون، ولا يضعونه إلا بقانون.. مثلهم مثل الطبيب الذى لا يلجأ إلى

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٥: ٢٤٨.

الجراحة إلا إذا عز الشفاء بما هو دونها وهناك بأس آخر ـ والبأس شدة الألم ـ سيكون في الآخرة إذا ظل هؤلاء المكذبون على غيهم. أما إذا تابوا، ورأوا طريق الحق واتبعوه.. فهم في دائرة الإيمان التى فتحها الله تعالى بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

وكأن وضع النذير، بين الحمد و البشارة،دعوة لهؤلاء المكذبين أن يدخلوا. دوائر الحمد والبشارة، ويسلكوا سبيل المؤمنين.

لنا أن نتأمل وصف جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات:

- أولا: أن لهم أجرا حسنا.
- ثانيا: ماكثين فيه أبدا.

فهم مؤمنون إيجابيون ـ إذا كان لنا أن تستخدم تعبيرًا معاصرًا ـ عمليون غير سلبيين، ولا منطوين على أنفسهم بعيدًا عن الناس والمسئولية.

وهم حين يعملون، يتحركون في دائرة الصالحات. فالعمل الذى يقومون به هادف،موجه إلى خير العقيدة والفرد والمجتمع.. عمل صالح بأى ميزان وزنته فرديا أو جماعيا. وهذا الميزان، نابع من صدر الآية.. فالقرآن قيم وليس له عوج والمقاييس النابعة منه، والأعمال التى تستلهم هذه المقاييس هى (الصالحات) وأوردها ربنا هنا بالجمع؛ تأكيدًا لتكررها وكثرتها، وإبرازًا لمعنى الاستمرار في العطاء، والرغبة فيه، دون انقطاع. بينما جاء الأجر في تصور موجز عميق ورحب ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ هذا التفكير في الاسم والصفة هو تتويج هذه الأعمال الصالحات. وهو القبول الإلهى لها.

ثم يصف ربنا هذا الأجر بقوله ماكثين فيه أبدا، فهو أجر غير مقطوع،فيه امتداد وشمول، وكما استمر المؤمنون حياتهم يعملون الصالحات،يستمر أجرهم الحسن في دار الجنة والمقامة.

ماكثين فيه أبدا: فإنها حياة مات فيها الموت.

وجود جديد في كون جديد.. ﴿ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ والإنسان ـ إنسان هذه الدنيا ـ ملول يحب التغيير.. فماذا يكون أمره وهذا قول الله تعالى أمامه ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

إن القرآن يفسر بعضه بعضا.. ولقد وصف الله جنته بقوله: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (آل عمران: ١٣٣). فإذا كان هذا عرضها، فما طولها وامتدادها ! لقد وصف الله الجنة في آية أخرى فقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (السجدة: ١٧) فلكل نفس ما تقر به عينيها.

وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (يونس:٢٦) فكل ما يطرأ على ذهنك بعده زيادة، في امتداد لا يتوقف وفى خواتيم سورة الكهف نقرأ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴿١٠٨﴾ ﴾ (الكهف ١٠٧-١٠٨).

هنا قف يا أخى عند قوله تعالى لا يبغون عنها حولا، هم الذين لا يبغون عنها حولا: أشواق النفس الجديدة في الكون الجديد، والفكر الجديد، والامتداد الجديد، في ضوء هذه الآيات نستطيع أن ندرك جوانب من قوله تعالى في صدر سورة الكهف ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾. ومرة أخرى نستحضر أن هذه البشارات الواسعة نزلت في أشد أواقات الضيق والمحنة في مكة، تحمل أقباسا من وعود الله بالنصر في الدنيا ،والأجر الحسن في دار الخلد و المقامة.. نزلت زادًا يعين على المسير وتحمّل أعباء الدعوة إلى الله.

٥ـ التوحيد

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥

تنقلنا هذه الآيات في النذير العام، إلى نذير في موضوع محدد تعددت صوره عبر التاريخ الدينى.. وبين يدى هذه الصور المتعددة نود أن نؤكد أن القرآن الكريم مرجعنا في الحوار الدينى· وأن القرآن قيم، ولم يجعل الله له عوجا ،ومن أجل ذلك ذكر الكثير من العقائد التى سبقته، وحذر من الأخطاء التى قد نقع فيها من بعد.

ففى قضية التوحيد ـ وهى التى تعنينا في هذا الحديث ـ ذكر صورًا من التعددية مارسها أقوام شتى.

كان عرب الجاهلية يتخذون من دون الله أولياء: مرة يقولون الملائكة بنات الله. ومرة يقولون إن أصنامهم تقربهم إلى الله.. وفى هذا نقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧ ﴾ (النحل:٥٧).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (الزمر:٣).

وقص عن اليهود والنصارى ذلك أمرا في النبوة ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾ (التوبة: ٣٠).

والله سبحانه وتعالى لم يذكر في القرآن كل الأنبياء ولا كل الأديان، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (غافر: ٧٨).

ولكن إذا رجعنا إلى الأديان الأخرى التى لم يذكرها القرآن وجدنا فيها هذه "الأسر الإلهية". آلهة تتزوج وتنجب وآلهة تتشكل في أكثر من طور من أطوار

الظهور. وآلهة تتجمع في جبل تسكن فيه معا، ولها علاقاتها فيما بينها وبين الناس. ونتاج نصفه إلهى ونصفه بشرى.. حشد كبير من الأساطير والعقائد والملل والنحل.. كان للقرآن منها موقف في غاية من الوضوح والتحديد

وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (الإخلاص). هذا الإفراد بالألوهية والربوبية جوهر العقيدة الإسلامية.

فالخطاب في هذه الآيات ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا، ليس مقتصرا على دين أو عقيدة. وهو مرتبط أوثق الارتباط وبصدر الكهف بأن القرآن ليس له عوج وأنه قيم.. وهو كما أنذر الذين كانوا على عهد النبوة يقولون بتلك العقائد أنذر بها كل من يدعيها على امتداد العصور والأماكن مهما تكن المبررات التى يستند إليها.. من تقريب الألوهية إلى البشرية أو الصعود بالبشرية إلى مستوى الألوهية أو ما يقاربها، أو تعطف الخالق على مخلوقيه بأن يسكن جسد أحدهم ليكون قريبا منهم حينًا من الدهر، ثم يعود إلى سمائه.. كل هذه المبررات يدينها القرآن الكريم وتبقى الألوهية فيه هى العقيدة المحورية الخالصة.

ومن هنا ندرك العمق في قول الله تعالى ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ﴾ فليس لهم أن يحتجوا بمواريثهم القديمة ولا بما قال الآباء.. بل إن فيها ضرورة عرض أقوال الآباء على محك العقل الذى كرّمه الله وكرّمه القرآن.. ثم يطلق القرآن هذه الإدانة المدوية في سمع الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين:

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ ﴾ ونقف قليلا عند الصورة الأدبية لهذة الآية: كلمة تتضخم ثم تنطق من أفواههم. تتعثر فيها وهى تخرج.. حجمها لا يتلاءم مع حجوم الأفواه.. تصور صفًا من البشر تخرج من أفواههم كلمة كبيرة.. كلمة من كل فم.. يكررون خروجها في هذا المشهد المنفر الكريه.. ويأتى وصفها الإلهى رغم كثرة قولهم وامتداده على زمانهم وزمان آبائهم ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ كذبًا مهما كثرت الأفواه.. كذبًا مهما مرت العصور كذبًا مهما تعددت الأماكن. كذبًا إذا قالها العرب في "الجزيرة" أو من

حولهم من أصحاب العقائد الأخرى. أما أنت يامحمد، وأنتم أيها المؤمنون، فاصدعوا بما سمعتموه من ربكم: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾.

ليس في هذا هجوم على أحد إنه انتصار لكلمة الله وإعلاء لها. والوحى الذى نزل على محمد عليه الصلاة السلام هو كلمة الله وأمره، ما اختاره المصطفى لنفسه ولا اختار كلمات ربه، وإنما هو رسول أنزل الله عليه الكتاب ولم يجعل له عوجا. الله هو الله. والإنسان هو الإنسان. وليس هناك من إله إنسان ولا إنسان إله. هذا هو الدين الخالص الذي دعانا إليه الله في قوله مخاطبًا رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤ ﴾ (الزمر: ٢-٤)

وقبل أن نرتحل إلى آيات أخرى، نقف في صدر سورة الكهف عند كلمة آثرنا أن نجعلها مسك الختام في مقدمة السورة هى قول الله تعالى في وصف المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾

هذه العبودية.. أشرف أسماء المصطفى وقد ذكرها الله في كتابه في أشرف مواقفه عليه الصلاة والسلام. وكلها تشريف وتكريم وذكرها هنا في تكريمه بإنزال الكتاب عليه.

١) ذكرها هنا في تكريمه بإنزال الكتب عليه.
٢) وذكرها في سورة الإسراء. وهى في الترتيب المصحفي قبل الكهف مباشرة: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (الإسراء).

٣) ومن الإسراء إلى المعراج لنرى وصف الرسول ﷺ بالعبودية في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ (النجم: ٨ – ١٠).

٤) ومن موقف المعراج نعود الى مكة.. والقرآن يصف ثبات الرسول على دعوته رغم المحن الشديدة: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ (الجن: ١٩).

٥) ومن مكة ننتقل إلى المدينة لنرى دفاع القرآن عن الرسول أمام أهل الكتاب وتحديهم بالقرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (البقرة: ٢٣ – ٢٤).

هذه العبودية مقام كريم يتحرر فيه الإنسان من كل القيود ولا يبقى فوقه إلا أمر الله تعالى.. وأى إنسان يتحقق بالعبودية هو مؤمن مصدق بالألوهية وبالربوبية.

وهذا المقام الكريم من العبودية والاصطفاء والرسالة هو الذى ارتضاه الله لأولى العزم من الرسل وللنبين.. وعلى هداهم يسير المؤمنون عبر الزمان والمكان.

العبودية لله تكريم وتشريف. ولقد دافع الله تعالى عن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا السلام فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ (النساء: ١٧٢).

وقص علينا في القرآن الكريم حوارًا يدور يوم القيامة بين الخالق جل وعلا وبين سيدنا عيسى عليه السلام والله به أعلم

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (المائدة:١١٦ ـ ١١٩).

وتأمّل هنا ختام قول عيسى عليه الصلاة والسلام وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ولم يقل الغفور الرحيم.. فهذا أمر يتعلق بالعقيدة، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فالمغفرة هنا في مقام العزة والحكم.

فصدر سورة الكهف دعوة إلى حمد الله تعالى وإلى التحقق بالعبودية وإلى معرفة الكتاب، واتباعه. فهو الصراط والنور والميزان والمرجع. هو الداعي إلى الوحدانية الخالصة،وإلى الإيمان، وعمل الصالحات،مع الإنذار لمن حادوا عن الوحدانية أو الصالحات، وتبشير المؤمنين بالأجر الحسن في دار الخلد والمقامة.

٦ ـ توجيه ورحمة

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

بعد أن كان الخطاب في الآيات الخمس الأولى من سورة الكهف عن القرآن: حمدا لله على إنزاله، ونذيرًا للذين ينحرفون عنه أو يشركون بالله، وبشيرًا للذين يتبعونه ووعدًا لهم بالأجر الحسن والخلود في النعيم، تحول الخطاب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في توجيه وحب ورحمة.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

أى يا محمد أتريد أن تهلك نفسك حزنًا وأسفًا لأن قومك لم يؤمنوا بالقرآن الكريم؟

ونقف عند الكلمات: نطقًا ومعنى.

فلعلك باخع:. وتأمل شدة نطق الخاء ومن قبلها الباء ومن بعدها العين.. تأمل مخارج الحروف الباء من الشفتين، الخاء من أدنى الحلق إلى الفم،هو من الحروف المهموسة، والعين من وسط الحلق تحس كأنك تنزع شيئًا من مكان في نطق الكلمة دلالة على معاناتها حسًا ومعنى.. صوتًا وحياة.

وباخع نفسه: قاتل نفسه أو مهلكها غما وفى اشتقاق الكلمة تتعدد الآراء: قيل البخع مشتق من البخاع ـ بالباء الموحدة ـ على وزن كتاب. وهو عرق مستبطن في القفا فإذا بلغ الذابح البخاع فذلك أعمق الذبح. قال الزمخشرى في قوله تعالى لعلك باخع نفسك في سورة الشعراء. وانفرد به فيما (كتب يعنى في تفسيره الكشاف وفى قاموسيه الفائق وأساس البلاغة). ويقول ابن الأثير في النهاية في غريب[1] الحديث والأثر "بحثت في كتب اللغة والطب فلم أجد أن البخاع بالموحدة أى بالباء". ويعنى أن الزمخشرى قد انفرد به ويعقب على هذا الإمام الطاهرى بن عاشور في التحرير والتنوير فيقول "وكفى بالزمخشرى حجة فيما أثبته". وقد اتبعه في ذلك صاحب القاموس المحيط (يعني الفيروز أبادى). فالبخع أصله أن يبلغ الذابح بالذبح إلى القفا ثم أطلق على القتل المشوب بغيظ[2]، وأنت يا محمد لعلك باخع نفسك على آثارهم ولم تقل الآية لعلك باخع نفسك عليهم. فما الفرق؟.

على آثارهم: فيها استمرار الأسف عليهم. حتى بعد أن يبينوا عنه ويتعدوا، فهم قومه وأهله. لا يسألهم أجرا إلا المودة في القربى. إلا أن يحفظوا حق القرابة

(١) انظر الصحاح للجوهري مادة بخع.
(٢) التحرير والتنوير: ١٥: ٢٥٤.

بينهم. فالمصطفى عليه الصلاة والسلام لا يريد لهم إلاّ خيرًا.. يخاطبهم إذا كانوا أمامه ويحزن على آثارهم، فهى تذكره بهم. والآثار ما يبقيه الماشي أو الراكب في الرمل أو الأرض من مواطيء أقدامه وأخفاف راحلته. وهو أيضا ما يبقيه أهل الدار إذا ترحلوا عنها من تافه آلاتهم التى كانوا يعالجون بها شئونهم كالأوتاد والرماد.

ولقد كان المصطفى عليه الصلاة والسلام حريصا على إيمانهم سالكًا إليه كل سبيل مشروعة، رأفة بهم ورحمة،يذكرهم في القرب والبعد ويدعو ربه "اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون "

و تأمل هذه المقابلة بين البعد والقرب في قوله تعالى فلعلك باخع على نفسك آثارهم.. إن لم يؤمنوا بهذا الحديث آسفا على آثارهم تحمل مفهوم غياب الشخوص أو بُعدها. ((وهذا الحديث)) تحمل الحضور الدائم للقرآن.. فهو هذا الحديث الذى أنزله الله تعالى على رسوله،وبلغه الرسول أصحابه، ودعا له قومه، وحملته الأجيال بعد الأجيال إلى الأقطار بعد الأقطار.

القرآن حضور دائم.. إنه دائمًا ((هذا الحديث)) المتجدد الهدى والنور. القرآن حاضر في نفسك يا محمد. حاضر في نفوس أصحابك. ولكن الكافرين حضور وغياب،تراهم مرة، وآثارهم مرة.. تتوزعهم أهواؤهم. وأنت والقرآن: رسول وكتاب لا يفترقان، أنت الصور الحية لأخلاقه ودعوته. أنت اللسان المعبر عنه وبهذا كان الرسول والقرآن الحضور الدائم في التاريخ كله.

فى هذه الآية حنان وحب من الله تعالى لرسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام،يدعوه فيه ربه إلى ادخار طاقته،لما هو أجدى من الأسف على آثار المكذبين الذين يجاهدون بالكلمة الغليظة واتخاذ الشركاء مع الله، مرتكزين على دنيا بين أيديهم هى عندهم الجاه والسلطان والمال. هى الحصن الذى يحتمون به ويستندون إليه،وهم يجاهرون الرسول عليه الصلاة والسلام بالجحود والكفر والتكذيب.

من أجل ذلك جاءت الآية التالية وصفًا للدنيا في حجمها القرآنى لا تعدوه، وبيان أنها دار اختيار وامتحان، وأن مادة هذا الامتحان كلها إلى زوال ولا تبقى إلا نتائجها يقابل بها كل إنسان ربه.. ولنقرأ معًا الآية التالية: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى

ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾.

نعم: إنها زينة. ولكن من جعلها كذلك؟ إنه الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل. زينة؟ نعم. فيها جمال؟ نعم. قد تغري البعض؟ نعم.. ولكن تذكر دائما أنها مادة الاختيار والابتلاء.. "لنبلوهم أيهم أحسن عملا"

لك أيها المسلم أن تحس زينة الحياة وأن تسعد بزينة الحياة من المال والبنين ولكن تذكر دائمًا ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

وأنت تستطيع أن تجعل أبناءك بالتربية السليمة من الباقيات الصالحات. وأن تجعل أموالك إذا كسبتها من حلال وأنفقتها في حلال، وأديت زكاتها ،ووصلت بها رحمك، وواسيت الضعيف،وأعنت المكروب، وشاركت في صناعة الخير.. تستطيع بهذا أن تجعل مالك من الباقيات الصالحات..

فالآية الكريمة لا تضع المال والبنين في كفة، والباقيات الصالحات في كفة مقابلة. وإنما تضع ـ في كفة ـ الاشتغال بالمال والبنين لمجرد أنهم ذريتك ومالك ولو على حساب مصالح الآخرين.. إن الأبناء الصالحين هم أفضل الباقيات الصالحات، وأموال الخير من أفضل الباقيات الصالحات.. ذلك لأن الولد الصالح هو الباقيات الصالحات المتجددة المستمرة ،ينتقل الخير والبر و الرحمة من جيل إلى جيل. وبه يستمر العطاء والخير، ويعود جانب منه على الأب أو الأم ولو سبقا إلى الله تعالى.. ونحن نحفظ الحديث الشريف.

يموت ابن آدم وينقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له.

وفي كلمة "لنبلوهم أيهم أحسن عملا" نذكر موقف سليمان في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النمل:٤٠).

وإن المؤمن ليرى في زينة الحياة آيات الله٠٠ يراها في الجبال الشامخة الراسية، والأنهار المتدفقة، والزهور الباسمة كأنها نجوم مضيئة بالفرحة

والجمال. يراها في الفراشات. وكل جناح من أجنحتها لوحة رائعة.. صنع الله الذى أتقن كل شىء يراها في ملايين الوجوه وقد تشابهت حواسها واختلفت لونًا وتناسبًا وتعددت ألسنة وفكرًا ، إن الكون متحف كبير.. متحف بلا حوائط ولا أبواب.. وفى كل شىء آية تدل على الله الذى أبدع الكون بما فيه من جمال وجلال.

وراء هذه الظاهرات كلها.. ووراء هذا الجمال والجلال كله، ووراء هذه القوانين التى يسير بها الكون.. هناك الحقيقة الكبرى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾.

وأنت أيها المؤمن لا يغرنك جاه ولا سلطان ولا ملك ولا مجد.. وتذكر دائما قول ربك: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ صالح هذا الكون وأحبه.. حب إيمان وعمران.. وتذكر أنك كما جاء في القرآن الكريم أبقى من السماوات والأرض.. واقرأ في هذا قول الله تعالى:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨ ﴾ (إبراهيم: ٤٨).

تبدلت الأرض. تبدلت السماوات. وقام الناس كالفراش المبثوث. ووقفوا أمام الله الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم وبقيت أنت أيها الإنسان بعد أن تبدلت السماء والأرض،وجاء الجزاء. واستعدادًا لهذا اليوم تذكر دائمًا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ ﴾ والصعيد التراب. والجرز القاحل و الأجرد.. الذى لا تصلح الحياة فوقه..

ومع هذه الآية الكريمة قف كثيرًا ،وتأمل طويلاً ،تمهيدًا لتنفيذ يستمر مع حياتك كلها : (لنبلوهم) إنه الاختيار.. الامتحان.. فأنت في حياتك في تجربة دائمة. في امتحان دائم.. ولكن مع استمرار الامتحان تذكر قول الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحجرات:٧-٨)، والمؤمن يستطيع بهذا أن يصعد بزينة الحياة إلى زينة الإيمان وحسن الجزاء.

٧ ـ مع أصحاب الكهف والرقيم

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢ ﴾

قبل أن نبدأ في فى عرض القصة التى تحمل السورة اسمها، هناك موضوع يتعلق بفضلها وتلاوتها، وأثرها في تكوين الفكر والموقف الإسلامى. وقد درج المفسرون على ذكر فضل السورة في صدرها.. وكان من الممكن أن نبدأ به أو نذكره بعد مدخلها،بين يدى قصة الكهف والرقيم.. ولكن هذا الفضل يتعلق بالسورة في تمامها وبخاصة أوائلها وخواتيمها فآثرت أن أجعله بعد الانتهاء من العرض والتحليل.. ونكتفى الآن بذكر أحد الأحاديث الشريفة التى تحض على تلاوتها وتبين فضلها.

يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: "من حفظ عشر آيات من أول الكهف ثم أدرك الدجال لم يضره ومن حفظ خواتيم سورة الكهف كانت له نورا يوم القيامة" رواه أبو الدرداء وللحديث روايات أخرى ذكرها الإمام أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه وأبو داود في سننه[1] .

ولقد سبق القول أن التحدى في سورة الكهف كان "علميًا"،وكان الذين سألهم رجال قريش واثقين من أن هذه القصص بعيدة عن الحياة العربية ولا يمكن أن يعرفها الرسول إلا وحيًا، وعندما أخبرهم بها الرسول عليه الصلاة السلام، لم يملكوا معه ردًا ولا جدلاً.

(١) ذاد المسير في علم التفسير لابن الجوزى ٥: ١٠٢ ط ٠ المكتب الإسلامى

ولكن إذا رجعنا إلى كتب التفسير وجدنا أكثر من قصة،وبين القصص تباين في الزمان و المكان.. وهنا يبدو الفارق الكبير بين المنهج القرآنى الربانى الذى جاءت به القصة،دون دخول في تفاصيلها وركزت على العبر الأساسية فيها،وذكرت من الأحداث والمواقع والمواقف ما يزيد هذه العبر وضوحًا، أقول هناك فرق بين هذا المنهج وبين ما جاء من أخبار المفسرين وقصصهم.

ولتوضيح الفرق أذكر مثالاً لا يبعد بنا كثيرًا عما نحن بسبيله من تأصيل المنهج القرآنى. وإثبات إعجازه، وتفرده عمّا جاءتنا به القرون السابقة من كتب الأديان الأخرى.

لقد تحدث العهد القديم عند خلق الكون الإنسان، تحدث عنهما القرآن، وذكر العهد القديم سلاسل زمنية محددة بالأعوام ولم يذكر القرآن أى شىء يحدد الزمان. إنما جاء فيه:

﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ ﴾ (الكهف: ٥١).

وجاء العلم الحديث فأثبت بالبراهين القاطعة أن بدء الحياة أقدم بكثير مما ذكره العهد القديم. وكان القرآن بعيدا عن هذه التحديدات الزمنية.. وإلى هذا يشير موريس بوكاى في كتابه "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة" (ص ٤٧ – ٥١) فيقول: ولكي تكون أكثر قربًا من الحقيقة لنقل إن خلق العالم تقريبًا بحسب التقدير العبرى. يُحدد تقريبًا بسبعة وثلاثين قرنًا قبل الميلاد.

وهناك استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان، وبين أكثر المعارف تأسيسًا في عصرنا..

هناك إذن منهج قرآنى في عرض الكون وتاريخ الإنسان وأحداثه، وهذا المنهج يبدو واضحًا في سورة الكهف: عناية بالعبر الأساسية فيها، وذكر ما يفيد هذة العبر من تفاصيل.

ولكن: ما أكثر الشروح شيوعًا لأصحاب الكهف.. ومتى وأين كانوا؟ فلنقم معًا بجولة في كتب التفسير والتاريخ:

ولنعد إلى الطبرى شيخ المفسرين وقد تبعه غير واحد من مفسرى السلف والخلفاء فنوجز ما قالوا:

كان هؤلاء الشباب من أبناء ملوك الروم وسادتهم. وأنهم خرجوا يوما في بعض أعياد قومهم. وكان لهم تجمع في السنة يلتقون فيه بظاهر البلد وكان أهلها يعبدون الأصنام الطواغيث ويذبحون لها. ولهم ملك جبار يُقال له "دقيانوس" وأنكر الشباب ذلك، فالسجود وتقريب القرابين لا يكون إلا لله الذي خلق السماوات الأرض. فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز عنهم واتخذوا لأنفسهم معبدًا يعبدون الله فيه. وعرف قومهم أمرهم ووشوا بهم إلى الملك فاستحضرهم. وسألهم. فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل فتوعدهم الملك وهددهم وأمهلهم لعلهم يرجعون. فآثروا الفرار بدينهم والهرب من الملك ومن قومهم، ولجأوا إلى الكهف ففقدهم قومهم. وتطلبهم الملك. وعمى الله عليه خبرهم وصحبهم إلى الكهف كلب. وألقى الله على آذانهم النوم. وكلبهم باسط ذراعيه بمدخل الكهف، حتى يبلغ الكتاب أجله.

وكما أرقدهم الله بعثهم صحيحة أبدانهم وأبشارهم. وذلك بعد ثلاثمائة سنين وتسع. لا يدرون كم لبثوا.. يوما أو بعض يوم وذلك في زمان حدث فيه شك في أمر القيامة، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة. وذكروا أن أحدهم ذهب ليشترى طعاما فإذا المدينة غير المدينة. والناس غير الناس. وعمد إلى رجل يبيع الطعام فدفع إليه ما معه من النفقة، فلمّا رآها البائع أنكرها فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم.. ويقولون: لعل هذا وجد كنزًا.. وسألوه عن أمره فقال: أنا من أهل هذه البلدة وعهدى بها عشية أمس، وفيها دقيانوس. فنسبوه إلى الجنون، وحملوه إلى ولي أمرهم. فسأله عن خبره حتى أخبره به. فلمّا أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف ـ ملك البلد وأهلها ـ حتى انتهى إلى الكهف. فقال: دعونى حتى أتقدمكم في الدخول لأُعلم أصحابى فدخل. وهنا تتفرع الروايات بين دخول الملك واعتناقه وأنسه بهم وودعوه وعادوا إلى مضاجعهم وتوفاهم الله.. وبين قائل أنه دخل إلى الكهف واختفى. وأخفى الله أمرهم.. فكانوا على البعث والقيامة آية. وبنى القوم عليهم مسجدًا، وسجلوا قصتهم في لوح هو الرقيم ووضعوه على الكهف أو فيه.

هذا هو الإطار العام للقصة كما جاء في كتب التفسير، ترجع بها إلى القرون الأولى لقيام المسيحية زمانًا، وإلى مدينة إفسوس في أقصى غرب آسيا الصغرى غير بعيدة عن أزمير مكانًا.

وعند الزمان والمكان نقف قليلاً.

ولنبدأ بالمكان.. فهو منا قريب٠ وآثاره من الأيسر دراستها..

تقع إفسوس إلى الجنوب الغربى من أزمير وعلى بعد ٧٣ كيلو مترا منها، وهذه المنطقة معبر حضارى بين آسيا وأوربا. والموقع الواحد فيها يشهد قيام مدن على أنقاض مدن.. والكهف المقصود في الدراسة على السفح الشمالى الشرقى لجبل بيون. وهذا اسمه القديم.. تعاقبت في المنطقة الحرب والحضارات.. وتتابعت فيها أيضا الديانات.. وشهدت الهدوء والثورات،والكفر والإيمان. وعندما عنيت البحوث الأثرية بموقع إفسوس في العشرينات من هذا القرن على يد بعثة ألمانية، ومن بعدها بعثة أمريكية في الستينات لم تعثر أى من البعثتين على أى بناء لكنيسة أو صومعة أو مسجد فوق كهوف إفسوس.. (وهذه المعلومات اعتمد فيها على كتاب الأستاذ رفيق وفا الدجاني وعنوانه "اكتشاف كهف أهل الكهف"، وفيه يذهب إلى وجود الكهف في الأردن كما سنذكر فيما بعد[1] وأن أقرب كنيسه لكهف إفسيس تبعد عنه نحو ثلاثة كيلو مترات من الناحية الشرقية،والكنائس الأخرى في ضاحية تسمى سلجوق تبعد نحو نصف المسافة٠ وعلى هذا ينفى انطباق الوصف القرآنى على كهوف إفسوس استنادا إلى التوزيع المكانى لأماكن العبادة.

ويدعم وجهة نظره بأن المساجد هى الأخرى يقع أقربها على بعد عدة أميال من كهوف إفسوس، وأشهرها مسجد القلعة العثمانية على تلة أيا صولوك في ضاحية سلجوق. وحتى إذا كان المسجد قريبًا أو فوق الكهف، فإنه بيقين متأخر زمنا عن العهد الذى تتناوله الدراسة.

ورغم هذا كانت عناية المسلمين قديمة بالكهف ومحاولة التعرف على المزيد من المعلومات عنه لتكون للقرآن شروحا عملية ملموسة. ويذكر المؤلف أن هذه العناية ترجع إلى عهد الخلافة الراشدة وأنها استمرت في الدولتين الأموية

---

(١) يراجع في هذا:
رفيق وفا الدجانى: اكتشاف كهف اهل الكهف ٠ مؤسسة المعارف بيروت ١٩٦٤ ص ١٠٦-١٠٧

والعباسية، وينقل عن ياقوت في معجمه (٢: ٨٠٤) أن الخليفة الواثق وجه محمد بن موسى المنجم إلى بلاد الروم للنظر إلى أصحاب الكهف والرقيم

وذهب آخرون إلى أن إفسوس القريبة من أزمير ليست المقصودة وإنما مدينة أخرى تحمل نفس الاسم أو قريبًا منه، "أمسيس" من ثغور طرسوس بين حلب وأدمينية وانطاكية وهى قريبة من"مرعش الحالية" وكان من أهلها صالحون من النصارى يقاومون عبادة الأصنام. وتلتقى هذه القصة مع السابقة في أنها حدثت في زمن دوقيوس أو دقيانوس.. الذى ملك في حدود ٢٣٧ ميلادية.. وكان متعصبًا للديانة الرومانية الوثنية شديد البغض للنصرانية.. فالقصة بهذه الرواية إلى بلاد الشام أقرب وباليهود أو النصارى الذين سألهم كفار قريش أشبه.. ولكن لماذا نتابع العناية بهذا الموقع وما علاقته بالتحدى؟

٨- متابعة لموقع الكهف

ذكرنا موضعين مقترحين للكهف أحدهما وهو الأشهر قرب إفسوس غير بعيد من أزمير في أقصى غرب آسيا الصغرى، وهو الذى ارتبط أكثر من غيره بالقصة، والثانى في جبال طوروس إلى الشمال من خليج الاسكندرونة.

وتتسع الدائرة لتشمل أماكن أخرى مقترحة نذكر منها أثنين قبل أن نعرض أقربها في الأردن الحالية، والذى تنطبق كثير من صفاته على الكهف القرآنى.

ويذكر القرطبى في تفسيره نقلا عن أبن عطية قوله: "وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى "لوشة" كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة(والرمة بالكسر: العظام البلية) وأكثرهم قد تجرد لحمه وبعضهم متماسك وقد مضت القرون السالفة، ولم نجد من علم شأنهم أثارة. ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف. دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة هجرية. وهم بهذه الحال، وعليهم مسجد وقريب منهم بناء رومى يسمى الرقيم كأنه قصر مخلق وقد بقى بعض جدرانه وهو في فلاة في الأرض حزنة (أى وعرة). وبأعلى حضرة (أى بلدة) غرناطة مما يلى القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينةدقيوس وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها[١].

(١) التحرير والتنوير للظاهر بين عاشور ٥:٢٦٤ تفسير القرطبى ١٠: ٣٥٨، وانظر التحرير والتنوير ٥: ٢٦٥

وغير بعيد عن تونس الحالية كهوف ذكر بعض علماء الآثار من الرهبان النصارى أنها كانت مخابىء لليهود يختفون فيها من اضطهاد الرومان القرطاجنيين لهم[1].

ننتقل الآن إلى المشرق العربى وسنعرض الآن للموقع المقترح في الأردن الحالية،ومرجعنا فيه كتاب "اكتشاف كهف أهل الكهف".. للأستاذ رفيق وفا الدجانى الذى رأس بعثة الحفر في عام ١٩٦٣ م.

يقع كهف الرجيب (وهذا هو النطق الحالى للكلمة،وهو غير بعيد عن الرقيم) على مسافة ثمانية كيلو مترات جنوب شرقى عمان على مقربة من طريق القوافل القديم بين الشام والحجاز. وقد عرفه المسلمون الأوائل؟ ذكره المقدسى في أحسن التقاسيم، وياقوت في معجم البلدان، كما ذكره البيرونى في كتابه الآثار الباقية.. وغيرهم.

١) وبقايا الكنيسة فوق كهف الرجيب تمامًا. وعلامات الصليب على الحجارة واضحة وكذلك على الحجارة التى كانت تغطى المدفن.

٢) وإذا كان المسلمون منذ صدر الإسلام وهم في شك في مكان أهل الكهف،أهو في تركيا (غربًا أو جنوبًا) أم في الأردن، فإن حفريات الرجيب ألقت ضوءًا مرجحًا لهذا الكهف على الكهوف الأخرى.

٣) ولقد كان من نتائج الحفريات في كهف إفسوس وكهف الرجيب أن ظهرت مئات المدافن في كهف إفسس، مبنية من الطوب، أما في كهف الرجيب فظهرت ثمانية مدافن أساسية منقورة في الصخر وهى بيزنطية. استدل عليها من الزخرفة التى عليها ومن النقود النحاسية التى عثر عليها في أثناء الحفر ومن قطع الفخار أيضا.

٤) ولم يعثر في كهف إفسوس على نقوش وكتابات،كما عثر عليه في داخل كهف الرجيب. في كهف إفسوس مخطوطة واحدة بالخط اليونانى الحديث. وأسماء بعض زوار الموقع من القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى. أما كهف الرجيب فجدرانه مليئة بالخطوط والنقوش الكوفية واليونانية القديمة والثمودية.

---

(١) تفسير القرطبي ١٠: ٣٥٨، وانظر التحرير والتنوير ٥: ٢٦٥.

obeikandl.com

٥) تبين أن باب كهف إفسوس من الشمال الشرقى ٠ وباب كهف الرجيب من الجنوب (ولنا عودة إلى دراسة+ باب الكهف في الرجيب) ويقع كهف إفسوس على سفوح جبل يناير داغ من الجهة الشرقية. أما كهف الرجيب فيقع على سفح الجبل من الجهة الجنوبية.

ومن هنا يتضح ـ بقول الأستاذ الدجاني ـ أن آية الشروق لا تنطبق على كهف إفسوس كما أكد ذلك المؤرخ جيبون وغيره في كتابه "انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية" (الجزء الأول ص ١١٩٩) وهى تنطبق تمامًا على كهف الرجيب. إذ يقول سبحانه في سورة الكهف: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ (أى في الداخل) ولقد عثرنا على الفجوة ـ والقول للأستاذ الدجاني ـ في كهف الرجيب. وقد ذكرها المقدسي في كتابه. ولم يعثر على فجوة في كهوف إفسوس..والشمس تدخل كهف أفسوس عند الشروق فتضرب بأشعتها لداخل الكهف (لأن الفتحة شمالية شرقية) أما في الرجيب فلا تدخله،وإنما تزاور عنه لا نحراف الفتحة نحو الغرب.. وأطراف الجبل من الشرق والغرب مفتوحة،وأمامه سهول واسعة يمتد في أفقها النظر إلى مسافات بعيدة.

٦) إن تاريخ أقدم كنيسة في أفسس يرجع إلى القرن الأول الميلادى.

وتاريخ هذة الكنيسة متقدم عن تاريخ أصحاب الكهف لأن أصحاب الكهف كما (أثبتته جميع المصادر الإسلامية والأجنبية قد ظهروا زمن الملك تيودوسيوس الثانى بين ٤٠٨، ٤٥٠ م. وتاريخها يخالف منطوق الآية الكريمة ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ أقول: وكلمة "جميع" المصادر التى ذكرها الأستاذ الدجانى أتحفظ عليها مؤقتًا لأناقشها عند ذكر العبرة من القصة ومنهج القرآن في العرض. وكيف استقل بأهداف محددة،بحيث تقطع الطريق على أى خور مقبل في التفاصيل، وليتجه المسلمون إلى العبرة العميقة في هذة القصة بخاصة وفى التاريخ بعامة، وفى أسلوب الحوار مع قريش وأهل الكتاب..

فبناء المسجد ـ و هو مكان السجود لله ـ صومعة أو كنيسة ينبغى أن يكون في زمن تيودوسيوس أو بعده لا قبله. في الرجيب تبين أن تاريخ الصومعة فوق

الكهف،والتى أحالها المسلمون إلى مسجد ترجع بتاريخها إلى زمن الملك جستيوس الأول بين سنة ٥١٨ ثمانية عشرة خمسمائة وسنة ٥٢٧ سبع وعشرين وخمسمائة. واستدل الباحث على ذلك بالنقود والفخار البيزنطى الذى عثر عليه في أثناء الحفر. وقد ثبت أن المسلمين الأوائل بنوا المسجد فوق جدران الصومعة تمامًا دون تغيير في المساحة وأضافوا المحراب إلى الحائط الجنوبى. وهو حائط القبلة ٠ ومن الشرق مكان الوضوء ودرج المئذنة مع بعض الحيطان وأقدم تاريخ للمسجد يرجع إلى عهد عبد الملك بن مروان أو ما قبله. ذلك بالعثور على نقود عبد الملك بن مروان عند المحراب مع الفخار الأموى.

وعندما زار ابن بطوطة مدينة آياسلوق (فى آسيا الصغرى) لم يتعرض لذكر الكهف مطلقا.. ولو كان حكامها الأتراك يعتقدون أنه الكهف المعنى في القرآن لبنوا عليه مسجدا..

وبتجميع هذه الخيوط يترجح كهف الرجيب وتكون عمان المدينة المعنية وزمن اللجوء إلى الكهف أيام الطاغية تراجان كما أثبت الحفر والتنقيب. وعمان مدينة مأهولة من قديم حصينة يسهل الدفاع عنها، والانطلاق منها، قديمة الحصون والأبراج والأسوار.

وقد فتحها تراجان عام ١٠٦ م وبنى فيها المدرج الرومانى أكبر مدرجات الشرق على الإطلاق، ويتسع لعشرة آلاف متفرج وأقام فيها الأبنية العامة والأسواق وشق الشوارع وأنشأ الحمامات، ولا تزال بقايا من هذه ماثلة حتى الآن. وكانت وقتئذ ملتقى طرق تجارية من الشمال إلى الجنوب والغرب ولها صلاتها بالبادية. وبنى المعابد.. مع العمران المدنى كان هناك إيغال في الوثنية ودفاع عنها.. مما يرجح وقوع الاضطهاد على أى مخالف لدين الدولة.

هذه أدلة ترجح بها كفة كهف الرجيب: المدينة هى عمان الوثنية قائمة فيها، يحميها حاكم باطش قوى، ازدهار الحياة وقتها، ولم يجد الشباب المؤمن أمامة وسيلة إلا أن يدع هذا الترف القاتل والوثنية الباغية إلى كهف يحتمى فيه من سيل الطغيان.

هذه هى أهم الأدلة التى ترجح كهف الرجيب،ولكن ـ مع كل هذا ـ هناك آراء أخرى حاولت أن ترشح أو ترجح أماكن أخرى ومن أهم ما قيل موقعان:

- الأول: كهوف البتراء: والبتراء مدينة كاملة منحوتة في الصخر ازدهرت مع التجارة،واضمحلت مع تحول طرقها. ولا ينطبق وصف الكهف عليها كذلك تتابع المبانى: ونقصد بناء المعبد فوق الكهف.
- الثانى: كهوف جبل قاسيون شمالي دمشق.. وفى هذا الموقع غيران تنسب إلى عدد من الأنبياء وذريتهم وصالحين: آدم. ابراهيم. مغارة الدم المنسوبة إلى قصة ابنى آدم. مغارة الربوة ويقال إنها مريم وعيسى عليهما السلام.. والبعض يربطها بقصة موسى والخضر..

ولا علاقة لهذه الغيران بالقصة وقد ذكرناها استكمالاً للحصر، وإن ذهب بعض كتاب الغرب مذاهب بعيدة فقالوا بوجود الكهف المعنى.. في الجزائر البريطانية.. بل ذهب به بعضهم إلى اسكندناوة الحالية..

والآن لماذا ذكرنا هذه التفاصيل؟ للمعرفة أولا،ثم لتحديد المنهج القرآنى الذى تجنب الكثير وركز على الأصيل.

٩ – زمان أهل الكهف

هناك جملة تستوقف النظر في تفسير الإمام ابن كثير عند شرحه قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾. وهى التركيز على الهدف الأساسى من القرآن توحيدا لله وعبادة وعمرانا للحياة..

ويُنقل عن ابن عباس " الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم". وقال محمد بن اسحق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

ثم يقول تعقيبًا على قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ يقول: وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم. فالله أعلم والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية فإنهم لو كانوا على دين النصرانية. لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم. وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ،فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر